

## الفصل الخامس

# صورة المستقبل

بعد حديث طويل عن دور التعليم في هندسة المستقبل ننتقل الآن من الخلفية العلمية السابقة إلى محاولة لإستشراف أرحب لصورة المستقبل . ورغم أهمية وفائدة التعرض لإجتهاادات الفكر المستقبلى فى المجتمعات الغربية إلا أن هذه المقالات فى مجملها تهدف إلى تقديم ملامح عن «صورة المستقبل» التى يمكن أن نتحاور حولها ، بل والتى يمكن أن يعرف منها «الأخر» كيف تبدو من زاويتنا نحن ، وهذا يؤكد الرغبة فى المشاركة فى صنع مستقبل واحد لكل البشر . وتبدأ من هذا الفصل أيضاً محاولة الجمع (وليس التوفيق) بين الموضوعية والإنشاء .. وهى محاولة أعتبر النجاح فيها «ضرورة المستقبلية» .. إذا «ما أخطرنا» الحفاظ على هويتنا .

١ - التسعينات وما بعدها

٢ - المستقبل العربى : التحدى والإستجابة

٣ - الآخرون هم الواقع

٤ - عروبة المستقبل

٥ - موسم الهجرة إلى الجنوب





## ١ - صورة المستقبل: التسعينات وما بعدها!!

**كها** تعرضت لموضوع التغير المتسارع الذى يشهده عالم اليوم، تذكرت عبارة تقول «أن آدم قال لحواء : إننا مقبلان الآن على مرحلة إنتقالية» ومنذ تلك اللحظة والبشرية لم تتوقف عن الانتقال من مرحلة إنتقالية إلى أخرى!! لكن المشكلة ليست فى التغير المستمر، وإنما فى معدله المتزايد، الذى نحدثه بأيدينا ومع ذلك لا نكاد نلحق آثاره وتراكماته المتلاحقة. ولعل تاريخ البشرية فى القرن الميلاى العشرين أفضل دليل على ذلك. بل إن السنوات الأخيرة لعقده قبل الأخير تحاول رسم ملامح عالم جديد تماماً، وهو العالم الذى ستدخل به البشرية القرن الحادى والعشرين، الذى يبدأ فى «أول يناير عام ٢٠٠١»، وإن كان البعض يستعجل بدايته ويريد أن يحرم القرن العشرين من عامه الأخير - عام ٢٠٠٠ - ويؤكد أنه بداية القرن الجديد، تمشياً مع مناخ السرعة ومسابقة الزمن.

وما كان لعقد التسعينات أن يلعب هذا الدور الحاسم فى «تاريخ المستقبل» فجأة، إنما تم ذلك كمحصلة للإنفجارات المتتالية، التى ألحقت

«بتاريخ الماضى» وأعمده الأساسية الكثير من الشروخ والتصدعات، لقد حدث ذلك منذ الحرب العالمية الثانية، وبالذات فى النصف الثانى من القرن العشرين، وفى إشارات تلغرافية سريعة، يمكن أن نرصد أهم ما حدث فى هذه الفترة: الانتقال من الاستعمار إلى الأمبريالية ومن القطبية إلى الهيمنة، إنتصار حركات التحرر ومواجهتها أزمات تنموية تكاد تعصف باستقلالها، إزدهار وإنحسار الأيديولوجيات، إداة وإنهيار شمولية النظم والخضوع لشمولية السوق العالمية وشركاتها عابرة اقوميات، تراكم أسلحة الدمار وظهور التوازن النووي وغزو القضاء، الوعى بالآثار الخطيرة للتلوث الذى لا يعرف الحدود ولااستنقاذ الموارد الطبيعية بطريقة خاطئة، تغيير العلاقة بالزمان والمكان نتيجة ثورة الإتصالات، زيادة مذهلة فى القدرة على تخزين وإسترجاع المعلومات، التوصل إلى إحتتمالات هائلة للقدرة على هندسة الكائنات وتوليف أشكال جديدة لم نعرفها من قبل، وكذلك التوصل إلى مواد جديدة ذات خصائص فائقة، لقد عاش ويعيش فى هذه الفترة أكثر من ٩٠٪ من العلماء الذين عرفتهم البشرية فى تاريخها الطويل وكانت إنجازاتهم وراء هذا السيل المنهمر من التغيرات بإيجابياتها وسلبياتها، وذلك تبعاً لكفاءة توظيفها المجتمعى، ولعل هذا يفسر تعالى صيحات الأهتمام بالجانب الأخلاقى والبعد الإنسانى لهذا التوظيف. لقد أدى كل ذلك إلى تساؤل دور الثورات السياسية والأيديولوجية فى كتابة التاريخ كما كان يحدث

فى الماضى، وبات واضحاً - كما يذكر هوج ستيرورات (١٩٨٩) - أن «تارىخ المستقبل» سيكتب بواسطة ثورة التكنولوجيا والاقتصاد والمجتمع، وهى ثورة يمكن أن تكون سليمة إذا إستمر مناخ تفضيل «أيدىولوجيات البقاء». ونبذ الصراع من أجل «بقاء الأيدىولوجيات».

إن ثورة التكنولوجيا والاقتصاد والمجتمع، التى يشير إليها ستيرورات فى دراسة عن الأعمال والتكنولوجيا والأبتكار فى العقود الثلاثة القادمة، التى أسماها «تذكر المستقبل»، تجعلنا نعود إلى الوراء لأكثر من عقدين لنسترجع الرؤية الثاقبة التى قدمها أندريه بوفر فى كتابه عن «بناء المستقبل» حيث يقول: «إن الإنسان هو لعبة القدر ومحركه فى الوقت ذاته، ومن هذا الموقع المتوسط يقوم بدور خلاق لا جدال فيه. وكلما كانت رؤيته واسعة وشاملة، وكانت نظراته المستقبلية المرسومة ضمن إطار إمكانات التطور بعيدة، كان أثره على التاريخ عميقاً. فالعمل الذى ينظم المستقبل - بالتنبؤ بالأوضاع الناجمة عن الأسباب العلمية والاقتصادية والاجتماعية - ليس عملاً خيالياً طويالياً، ولكنه يخضع فى الغالب لشروط قاسية ينبغى تقديرها بصورة صحيحة». وعلى ذلك، فالتقدير السليم يعتمد إلى أقصى الحدود على فهمنا لما أسماه جون نيسبت «بالتوجهات العظمى»، التى ذكرها فى كتاب صدر عام ١٩٨٢ تحت هذا الإسم، وهى فى رأيه التوجهات التى ستكون حياتنا فى المستقبل. هذه التوجهات العظمى تستحق منا وقفة قصيرة.

• يتحدث نيسبت بالدرجة الأولى عن أمريكا، ويطرح التخوف من «استنساخ» النموذج الأمريكى ومحاولة تكراره فى كل مكان. ومع ذلك فباعتبار الولايات المتحدة الأمريكية أكثر المجتمعات تقدماً وإبتكاراً، فمن المنطقى الاطلاع على ما تراه من موقعها المتقدم على أساس تراكم آثار المنجزات العلمية والتكنولوجية والتغيرات الاقتصادية والاجتماعية. يقول نيسبت: أن إنسان اليوم يعيش بين قوسين: الماضى القريب والمستقبل الأقرب، قدم هنا وقدم هناك. وقبل زن ينقل القدم الموجودة فى الماضى، عليه أن يدرك توجهات المستقبل، لأن التوجهات فى رأيه - مثل الخيل، يسهل إمتطاؤها وهى فى الاتجاه الذى تسير فيه فعلاً. فما هى هذه التوجهات العظمى؟ يحدد نيسبت عشرة توجهات هى\*:

- التحول من المجتمع الصناعى إلى مجتمع المعلوماتية.

- الانتقال من الانقياد للتكنولوجيا إلى الإستجابة الإنسانية الموازية

لتطور التكنولوجيات المتقدمة.

\* فى عام ١٩٩٠ أصدر نيسبت «التوجهات العظمى ٢٠٠٠ - Megatrends 2000»، الذى أكد فيه إستمرارية التوجهات العشرة المذكورة كجزء من صورة المستقبل، وإن إقتراح لعقد التسعينات التوجهات العشرة الآتية، بإعتبارها من أهم العوامل التى ستشكل صورتها: الإزدهار الاقتصادى - النهضة الفنية - ظهور إشتراكية السوق الحرة - تزاوج نمط الحياة الكوكبى مع الثقافات القومية - التخصصية فى مجتمعات الرفاهية - نهضة فى دول الباسيفيك - عقد القيادات النسائية - عصر البيولوجيا - الإحياء الدينى للألفية الجديدة - إنتصار «القرن»

- الانتقال من خطط وإعتبرات المدى القصير إلى إستشراف المدى الطويل.

- الانتقال من النظرة الضيقة للاقتصاد القومى إلى النظرة الشاملة للاقتصاد العالمى.

- التحول من المركزية إلى اللامركزية.

- تزايد الاعتماد على الذات فى مقابل الاعتماد على المؤسسات.

- التحول من ديمقراطية الأنابة إلى ديمقراطية المشاركة.

- التحول من النظام الهرمى إلى النظام الشبكى، الذى يناسب عصر اللامركزية والمعلومات.

- الانتقال من المناطق الصناعية القديمة إلى مجتمعات جديدة.

- التحول من مجتمع الخيارات المحدودة (هذا أو ذاك) إلى الخيارات العديدة.

هذا التحول المجتمعى الكبير، الذى تقف وراءه الثورة العلمية والتكنولوجية، بآثارها الاقتصادية والسياسية الهائلة، يحتاج إلى قدر كبير من التكيف والاستيعاب، حتى لا نتعرض لما أسماه الفين توفلر «صدمة المستقبل». هذا التكيف والاستيعاب سيكون أصعب منألاً على من يعيشون متخلفين عن حاضر الدول المتقدمة، بل وعن ماضيها بدرجة

تدعو للإنزعاج، ويساعد الإنسان على التكيف أن يقوم بالتنبؤ العلمي، الذى يحاول تقديم صورة موضوعية للمنجزات المتوقعة فى فترة زمنية محددة، لنناقش فى ضوءها أفضل سبل توظيف هذه المنجزات لخير البشرية، التى تتداعى الحواجز بين عشايرها وأممها يوماً بعد يوم وتحضرنى هنا فكرة «آلة الزمان»، التى تصور مؤلفها قدرتها على التنقل بحرية بين الماضى والمستقبل، بحيث تستطيع تتبع أحداث الماضى الذى أفرز اللحظة الحاضرة، التى لا تستقر كثيراً بسبب سرعة التغيير، وتقودنا إلى المستقبل والمستقبل يجب أن يحظى بكل الاهتمام، لأنه - كما يقال - هو الذى سنقضى فيه بقية أعمارنا!!!

• لقد جرت محاولات كثيرة لتطبيق مفهوم آله الزمان لتقديم «صورة المستقبل»، ودور التقدم العلمى والتقنى فى رسم ملامحها، ولضرورة الانتقاء سأحاول إلقاء نظرة طائر على محاولة أعجبتنى بشكل خاص، قام بها كاتب المستقبليات والخيال العلمى المعروف آرثر كلارك (١٩٨٦)، وأسماءها: ٢٠ يوليو ٢٠١٩ - يوم فى حياة القرن الحادى والعشرين!!! عاد كلارك إلى اليوم الذى شهد لحظة نزول أول إنسان على سطح القمر (٢٠ يوليو ١٩٦٩)، ومضى يتتبع مع عدد كبير من المتخصصين، ما تم إنجازه فى قرابة العقدين، مع تقديم التنبؤات الموضوعية لما يمكن أن ينجز فى العقود الثلاثة القادمة، وتصور آثار هذه المنجزات على مختلف مجالات النشاط البشرى عبر هذه الفترة، وصولاً إلى يوم إحتفالنا بمرور

خمسین عاماً على زيارتنا القمرية الأولى، التي ستحل ذكورها في ٢٠ يوليو ٢٠١٩<sup>٦</sup>. ترجع موضوعية الصورة التي قدمها المحرر وشركاؤه إلى أن «البذور الجنينية» لكل تنبؤاتهم موجودة بشكل علمي مؤكد. لقد زواج كلارك بين المتحقق والمتوقع وقدم عرضاً حيويًا لحياة إنسان المستقبل، منذ لحظة الميلاد الذي يمكن أن ينتج عن عديد من الطرق الاصطناعية، إلى لحظة الوفاة التي قد يضع بنفسه اللمسات الأخيرة للإحتفال بها. ودعونا نقدم لقضات سريعة من هذا العرض.

• في مجال الصحة ستتم متابعة الفرد منذ تكون خلية الجنينية الأولى بالطرق الطبيعية أو الصناعية، وخلال فترة الحمل (الذي يمكن أن يمارسه الذكور)، حتى لحظة الميلاد، وبدلاً من شهادة الميلاد سيسجل لكل فرد «شهادة حياة»، تتضمن تحليل إمكاناته الوراثية، والأمراض التي قد يتعرض لها طبقاً لهذه الإمكانيات. مع ذكر المهن غير الملائمة صحياً، وحتى التقدير التقريبي للعمر إذا لم يتعرض للأمراض والحوادث!!! وبالنسبة للتشخيص والعلاج سيلعب الكمبيوتر والإنسان الآلي «الروبوت» دوراً متزايداً. وستعالج الهندسة الوراثية الكثير من الأمراض المستعصية، وستتم غالبية العمليات خارج المستشفى، وستصير الأخيرة - أو صارت فعلاً - أقرب إلى الفندق، وقد أعطاها اسماً مشتقاً من الكلمتين (مستندق Hostel!!!). هذا بالإضافة إلى

<sup>٦</sup> هناك الآن حنين جارفد للقيام برحلة قمرية ثانية.

التقدم الكبير المتوقع فى مجال زراعة الأعضاء وقطع الغيار الحية، وكذلك الأجهزة التعويضية التى تستجيب لأوامر المخ بحساسية عالية

أول ما سيميز التعليم هو إستمراريته وتنوعه طوال فترة حياة الفرد، والأستخدام الأقصى للمعلوماتية والاتصالات فيه، والتركيز على تعليم الفرد كيف يتعلم، أكثر من تعليمه مادة معينة. ولاشك أن اسطوانات الكمبيوتر الصغيرة، بما يمكن أن تحويه من معلومات تنوء بها أرفف المكتبات، ستغير تماماً من شكل الكتاب والمكتبة، وهذا أمر يحز فى نفس من لا يتصور «الحياة بدون كتاب»، لكنها سنة التطور الذى تبشر به كل «الكتب» التى تستحق أن تقرأ!!!

- أما تجربة الموت، فسيسبقها تأخير الشيخوخة عن طرق تقليل ومعالجة الأضرار التى تصيب مادة الوراثة فى خلايانا، وسيمارس المرء زراعة قطع غيار جديدة كلما إحتاج إلى ذلك .. وإذا لم يمت فجأة - فى حادث مثلاً - فستكون الوفاة أقل بشاعة، ولن يخلو الاحتفال بها من نسات فنية كثيرة، يخطط لها «مرحوم المستقبل» بنفسه!!!

- يتوقع كلارك أن تجرى حرب المستقبل بين «الروبوت» حيث لن تراق فيها الدماء، ولكن «ستراق» فيها الدوائر الالكترونية والخلايا الضوئية لهذه «الروبوتات»، التى قد يكون بعضها أذكى منا كما تشير التوقعات، وبالتالي سيرفض الحرب وعموماً فإن كلارك متفائل أيضاً،

حيث يتوقع إختفاء الأمم المتحدة عندما تتحول من مفهوم «العالم قريتنا» إلى «العالم أسرتنا»<sup>٢٤</sup>.

وبعد، لابد وأن نعترف بأن هذه السطور السابقة تعرضت في مجملها للمستقبل «بعيون غريبة» وذلك لإهتمام الغرب الكبير بأدبيات المستقبل ودراساته

وإذا ما نظرنا إلى ما جاء فيها «بعيون عربية إسلامية» فسنوافق على بعضه ونتحفظ على البعض الآخر أو نرفضه، دون أن يعنى ذلك تخلفنا عن الركب. ألم نتفق على أن الخيارات العديدة تعد من ضمن التوجهات العظمى للمستقبل؟

علينا أن نبدع فكرنا المستقبلي النابع من ثقافتنا، والذي يتواعم مع هذه التوجهات العظمى، ولكنه لا يتطابق مع الفكر المستقبلي لأصحاب الثقافات الأخرى. إن المستقبل للتكيف والتنوع في ظل الاقتناع الكامل بحق الوجود المشترك، ففي ذلك ثراء للبشرية ول مستقبلها. بل إننى لا أبالغ إذا ما ذكرت أن البشرية في حاجة إلى أن تكشف عناصر المستقبلية في تراثنا الغنى، لنطعم بها المشروع الحضارى لإنسان الألفية الثالثة بعد الميلاد. إنه حق وواجب، فهل نضطلع به؟! دعونا نضع هذا الأمر ضمن القائمة الطويلة لما يجب أن نجزه في التسعينات .. أعاننا الله.

---

<sup>٢٤</sup> قد لا يدور الصراع المباشر بين الروبوتات، بقدر ما هو دائر في مجالات الذكاء الاصطناعى من محاولات للتفوق والسبق والتنافس على الأسواق.

## ٢ - المستقبل العربي: التحدي والاستجابة

من أن نتحدث ليل نهار عن المتغيرات العالمية ورياح التغيير القوية، وإن كنت أخشى أن يكون كل نصيبنا هو «الحديث»، تاركين لغيرنا مسيرة التغيير و«التحديث»!! إن بعضنا يسطح الأمور بشكل مستفز، ويكاد لا يرفع عينيه عن عقارب الساعة منتظراً وصول رياح التغيير، ومتجاهلاً الفروق الموضوعية بين أوروبا والوطن العربي، وهى الفروق التى تجعل لكل منهما رياحه الملائمة القادرة على دفع سفن تقدمه وإزدهاره. ولا أبالغ إذا قلت أن لكل منهما أيضاً مصداته القوية، التى تنكسر عندها رياح كثيرة، وتفقد فعاليتها وقوة دفعها.

• لا شك أن الحديث عن أزمة التطبيق فى المعسكر الاشتراكي وضرورة إجراء التغييرات النظرية والعملية الملائمة للخروج من الأزمة ليس جديداً، لكن المثير للدهشة هو المعدل المذهل للسماح بإنهيار النظم القائمة، وإجراء ذلك بإشارة «فوقية» واضحة من جورباتشوف. إن التاريخ سيحسب له شجاعة الحسم بالنسبة للنقد الذاتى ودعم مسيرة

التغيير فى البلدان التى لم تستوعب قياداتها ضرورته، لكنه قد يحسب عليه «سيناريو الأنهيار» الذى تم به هذا التغيير، رغم أنه لم يكن هو السيناريو الوحيد الممكن. ولعل حرصه الاستراتيجى على اللحاق بالبيت الأوروبى قبل تثبيت شكل أوروبا ١٩٩٢ كان دافعاً لذلك، كما أن إرتياح الشريك الأمريكى فى سياسة الوفاق الكوكبية ليس مستغرباً، فالأنهيار يؤكد من ناحية «الفشل الكبير» للشيوعية تبعاً لتحليل بريجنسكى فى كتابه الأخير، ويجعل من ناحية أخرى خطط أوروبا ٩٢ أقل طموحاً، لأنها ستلتزم أدبياً وواقعياً بالمعاونة فى حل أزمة الأشقاء فى أوروبا الشرقية.

وإذا كان بريجنسكى قد عزا «الفشل الكبير» إلى قصور اليوتوبيا الشمولية، وأكد أن المستقبل للديمقراطية، فإن عدم الاستقرار على الصورة البديلة فى ظل التعامل مع الأحداث بمنطق الأنهيار بدلاً من منطق تصحيح المسار، قد أدى إلى ضبابية كثيفة من المرجح أن تنجلي عن موقف أكثر توازناً مع متطلبات الاندماج فى السوق العالمية، الذى يمثل الشمولية الجديدة التى ورثت شمولية النظم والذى يبنى على الطفرة التكنولوجية لمجتمع ما بعد الصناعة. ولا أبالغ إذا ما قلت أن هذا الاندماج يعد من أهم الدوافع والأهداف الحقيقية للبريستورىكا، ومن أهم وسائل بناء النظام العالمى الجديد، الذى تعد سيناريوهاته التفصيلية على مائدة مفاوضات العملاقين الأمريكى والروسى (ولا أقول

السوفيتي). لقد سئل محامى إريك هونيكر - حاكم ألمانيا الشرقية السابق - عن حالته العقلية بعد مرضه الأخير، فقال أنه لا يستطيع تفهم الواقع المحيط به اليوم، وأردف متسائلاً عما إذا كان هناك من يفهمه غيره. ونحن نؤكد أن هناك من يفهمه، وهو الذى يحرص على أن يصنعه ويشكله!!

ولأننا نعتقد أن تشكيل النظام العالمى الجديد سيعتمد فى «المدى القصير» على مبدأ «السلام المرتكز على القوة»، وليس السلام المرتكز على العدل. فمن المهم أن نؤكد على الطبيعة الديناميكية الأنية لهذا النظام، لأنها تفتح الباب أمام محاولات الانتقال إلى وضع أقرب إلى السلام المرتكز على العدل، وكذلك أمام الكيانات التى توظف طاقات التقدم فيها بكفاءة لتشغل موضعاً أفضل فى هذا النظام. ويصرف النظر عن التحليلات الساذجة، لا نظن أن كل ما يحدث هو مجرد «أمركة المستقبل العالمى» فهناك الكثير من العناصر الموضوعية التى تنفى هذا الرأى، الذى يدعمه التأثير الضاغط للثورة العلمية والتكنولوجية الثالثة التى تصدر الولايات المتحدة مسيرتها. إن الطاقة العلمية لكثير من الدول ستسمح لها بالمشاركة الجادة، والبعد الثقافى لها لن يجعل لحاقها يركب التقدم العلمى والتكنولوجى مبرراً لأمركتها. وإذا كانت اليابان وألمانيا من أوضح الأمثلة، فالمستقبل القريب سيقدم أمثلة أخرى، قد لا تكون كلها أوروبية أو آسيوية مستغربة. إن تفجير طاقات بعض الكيانات

الثقافية المتميزة كالصين والهند والوطن العربي وبعض دول أمريكا اللاتينية يمكن أن يثرى المستقبل البشرى كثيراً بالنسبة لصيغ التوظيف المجتمعي لمنجزات العلم والتكنولوجيا، وأن يدعم من موقع أقوى من الوضع الحالي «المكون الأخلاقي في النظام العالمي الجديد». وهذا هو الأمل الوحيد للاقتراب من صيغة السلام المرتكز على العدل بقدر الأمكان.

وأخيراً، يزيد من ديناميكية النظام الدور المتزايد للجماهير، فالشكل النهائي للتأثير الملحوظ للعنصرين القومي والديني سيسهم في وضع الأتزان النسبي الذي سيصل إليه عالم اليوم. وكما أن الجماهير شاركت في رفض شمولية وديكتاتورية النظم بشكل رئيسي حاسم، فإنني أتوقع بعد إتزان وتشجيع التوجهات الفردية في النظم الليبرالية، التي أنتجت شمولية السوق العالمية الشرسة. أن تقوم الجماهير منطلقة من نظامها القيمية والأخلاقية، ومن حلمها المجهض بالعدالة الاجتماعية، وبإدراكها بمواجهة الآثار السلبية لهذه التوجهات على النظام العالمي ككل، وبمساعدة الشعوب الفقيرة بالذات. وستحد هذه الجماهير أيضاً من تأثيرها على البيئة وتلويثها، وستشجع مسيرة السلام ونزع السلاح.

• نعود الآن إلى الورلن العربي لندرس وضعه الحالي في التصور التكويني للمستقبل، وأفاق الحركة المتاحة له في المضار والمستقبل في ظل التغييرات العالمية المتسارعة.

حدث تفاؤل عام لما حدث بالكتلة الشرقية، وتصوره البعض إنهياراً نهائياً للإشتراكية، وما زال البعض الآخر يراه تصحيحاً بارعاً لمسارها، وكنموذج للرأى الآخر يقول إميل حبيبي: «أنا سعيد جداً. ويجب أن نكون كلنا سعداء، بأننا عشنا وشفنا ميلاد هذا الجديد المطهر والمنقى والأكبر من كل واحد منا وهمومه التى تبدو - فى حالة هذا الخضم الزاخر - تافهة، وأتفه منها التعليق بالماضى والنظر إلى الموارء كما يفعل السباح المتخلف الذى ينظر خلفه لعله يجد سباحاً آخر تخلف وراءه، فى هذه المباراة الكبرى عن الوصول إلى القرن الواحد والعشرين، لعله يشعر بالأطمئنان على أنه ليس وحيداً فى هذا التخلف».

وعندما ننظر للأمر بعيون عربية، فالبرويسترويك لا يمكن أن نتغاضى على آثارها السلبية عن قضايانا الرئيسية إذا ما إكتملت كارثة تهجير مئات الآلاف من اليهود إلى الأراضى المحتلة. وإذا ما تغير الموقف المؤيد الذى يقفه (السوفييت) \* بالنسبة للحق العربى فى مجال الفعل، حتى وإن ظل مقبولاً فى مجال القول، كما أننا فى ظل الواقع العربى الراهن لا نتصور قابلية البريسترويك ورياح التغيير التى أتت بها أن تؤثر فىنا بالدرجة الأيجابية التى ينتظرها البعض، بل ويكسبها لباساً إيديولوجياً يتطابق مع منطلقاته الفكرية.

---

\* كان هناك ما يسمى بالسوفييت عند كتابة المقال عام ١٩٩٠، لابد وأننا ما زلنا

نذكر ذلك!!!

بل ومن حقنا أن نتساءل عن شكل الاستجابة المناسبة لما يواجهنا من تحديات أى عن إمكانية إبتكار نموذج التغيير المناسب لنا، ويحضرني هنا نموذج الانتفاضة!! فقبل أن نتكلم عن رياح التغيير علينا أن نعلم أجيالنا الجديدة ضرورة «رجم» مصداتها كالأمية والتخلف الشامل والشنت وراء قلاع القطرية، التي لا تحمي أحداً منا، ولكن تمكن أعداها من الانفراد بكل منا. وعلينا أيضاً أن نغضب لواقع التبعية المطلقة الذى نعيشه، ولهامشية مواقعنا السياسية والاقتصادية فى النظام العالمى، وأن ندرك أبعاد «القنابل الزمنية» التى توضع فى طريق مشروعنا القومى باستمرار بدءاً بالصراع العربى الصهيونى، وإنهاء بتحركات «حرب المياه»، ومروراً بتحريك الأقليات والنزعات العرقية والدينية وإدارة صراع الخليج. والمسألة ليست إحتماء ساذجاً بالتفسير التأمري للتاريخ كما يظن البعض، لأن أغلب حلقات هذا المسلسل كانت مندرجة تحت نطاق «اللعب على المكشوف» الذى يمارسه الطرف الأقوى للتحكم فى التابع الضعيف.

يمكننا أن نستنتج أن هنالك إتجاهاً عاماً لتهميش مشاكل الأمم المتعثرة، بدافع الأنشطة فى تحديد الملامح الرئيسية للنظام العالمى الجديد، مع النية لفرض حلول تتوافق مع رغبات الكبار بالنسبة لحل المشكلات الإقليمية. وكما أن البعض - ولست منهم - ينادى ليل نهار ببيع القطاع العام ما دام متعثراً، فبنفس المنطق تقريباً ينادون «ببيع

المشروع القومي» للأمم المتعثرة بالأسراع بالاندماج الهامشي في السوق العالمية. إن هذا الإتجاه من إتجاهات التغيير هو الذي يجب أن تضع أمامه المصدات لتتلافاه ونكسر حدته بدلاً من وضعها أمام التوسع في الديمقراطية والمشاركة الشعبية ومحاولات التقدم نحو ترسيخ المضامين العلمية الموضوعية للوحدة العربية، التي يمكن أن تشكل علماً شاملاً (وحدولوجياً!!) يشمل دراساتها البشرية والاقتصادية والسياسية والمستقبلية ... إلخ.

إن الوطن العربي بإمكاناته وطاقاته حالة خاصة لا تستحق التهميش، وعلى أبنائه أن يسارعوا بإستخلاص عناصر التقدم والمستقبلية في «تراثه الحي» المتسئل في ثقافته العربية والإسلامية، وأن يتجاوزوا خلافاتهم الداخلية ومشاكلهم الواقعية والمصطنعة مع دول الجوار بحلول عملية جذرية، وأن يصلحوا مفاتيح التغيير والتقدم للمجتمعى التي علاها الصدا والتي لن يخلصها من هذا الصدا إلا ثورة الثنائيات الثلاث: التربية والتعليم - العلم والتكنولوجيا - الثقافة والإعلام وأخيراً عليهم إثراء مفهوم الأمن القومي فى ظل موقف بعيد النظر من الصراع العربى الصهيونى، وصيغة حضارية لعلاقاتهم مع مختلف دوائر الانتماء الأصغر (القطرية) والأكبر (الإسلامية والأمريكية والأسىوية والعالم الثلاثية) إنتهاء بالدائرة الإنسانية الأعم والأشمل. إن هذه المهام مجتمعة يجب أن تكون على أجندة العرب فى التسعينات.

وهذا الأمر لا يدعو إلى الإنزعاج ولكن يدعو إلى التنسيق والتخطيط والتعاون بعزم وإخلاص. وهو موقف تشاركنا فيه دول أكثر تقدماً، كدول أوروبا الشرقية، إلا إذا صدقنا «المعالجات التهريرية» التي تؤكد أن شعوبها لا تعرف شكل البرتقال!!! إن من يسارع بوضع إستراتيجية ومشروع قومي للمستقبل، مع ضبط إيقاعهما مع التوجهات العالمية العظمى للتغيير، بصورة تجعله يستفيد من الخط العام (الديمقراطية - الحرية - السلام - التقدم العلمى والتكنولوجى .. الخ) دون أن يفقد الخاص (الهوية الثقافية والأمن القومى) يمكن أن يشارك، دون مبالغة، فى صياغة المشروع الحضارى لمستقبل البشرية فى الألفية الميلادية الثالثة - ألفية ابن آدم، التى تزايدت فيها قدراته، وتعاظمت مسؤولياته عن قراراته. إنها مهمة صعبة، لكنها تستحق كل جهد يبذل فى سبيلها. ويلزم إنجازها عربياً تحرير عقولنا وإطلاق الفكر الأبدعى المكبل بكثير من القوالب المعوقة، وإثراء مراكز رسم الاستراتيجيات وصنع القرارات بالعناصر الشابة المتميزة. إننى أتخيل المشروع القومى المأمول وقد جمع فى صيغة متوازنة بين الاعتماد المتبادل وفك الارتباط، بيننا وبين الكتل الأخرى التى تميز عالم الغد. إن هذه الصيغة يجب أن تتضمن إستراتيجية ناضجة للتنمية الشاملة، وعلينا أن نفتح باب الحوار واسعاً للتوصل للملحة الرئيسية، بل ولناقشة الخطط المرحلية والسياسات التنفيذية، التى يمكن أن نحقق أهدافها.

### ٣- الآخرون هم الواقع !!!

**فلس** مرحلة المراهقة الفكرية للجيل الذى أنتمى إليه، كانت مساحة الأفكار الوجودية ومن يروجون لها كبيرة إلى حد ملحوظ، وظهر من بين هذه الأفكار مقولة «الآخرون هم الجحيم»، طافت بذهنى هذه المقولة أكثر من مرة خلال الآونة الأخيرة، التى تتشكل فيها صورة جديدة لمستقبل البشرية، يمكن - بل ونرجو لها - أن تقوم على أساس التواجد المشترك Co-existence والاعتماد المتبادل Interdependence، هذان المبدآن يعملان على تقليل الحساسية والاحتكاك بين مختلف الثقافات والتوجهات الخاصة بالشعوب والجماعات المختلفة فى «الأسرة البشرية» إلى أدنى حد ممكن، ولا نقول إغاعها، فهذه طوبأوية فجة. والفرق بعيد بين المنطلق الفردى فى المقولة الفلسفية الوجودية، التى تبدأ فكرة «الآخر» عندها من نظرة الفرد إلى بقية أفراد «الأسرة النووية» الصغيرة، وبين النظرة الكوكبية للآخر، التى تحاول صياغة العلاقات بين شعوب وجماعات الأسرة البشرية، بحيث لا يكون «الآخرون هم الجحيم» لتظهر مقولة «الآخرون هم الواقع» بكل ماله

وما عليه، والذي يجب أن نعمل جميعاً على التكيف المشرف معه، وعلى أن يكون مقبولاً، بل ومحبولاً بقدر الإمكان.

\* والحقيقة، فإن مقولة «الأخرون هم الواقع»، هي المقولة الوحيدة التي تعفى من يتبناها من ارتكاب الأخطاء الفادحة في الحساب، التي تنجم عن العزلة والتمترس وراء حصن وهمي تشكله مجموعة من الأفكار الخاطئة عن الذات والآخر، بصورة لا يمكن معها إدراك التوجهات الكبرى في مسيرة «تاريخ المستقبل». والمشاركة في إبراز ملامح صورته المأمولة، وهي المشاركة التي ستحدد في نفس الوقت مكانة كل شعب في هذه الصورة، وهل سيكون ضمن مناطقها المضيئة أم المظلمة؟ أم سيكون - والعياذ بالله - خارج إطارها تماماً، بحيث لا يكون له مكان في تاريخ المستقبل؟! إن هذا الاحتمال قائم تماماً، بل لقد ظهرت بداياته بشدة، ومن لا يصدق، دعوه يبحث عن الأشكال القديمة للأحزاب الشيوعية، وعن الأطروحات السانجة لبعض التيارات السياسية العربية، ويحدثنا عن مستقبل هذه أو تلك، وإن لم يجد شيئاً ذا بال، فليرجع معنا إلى الحديث عن الحسابات الخاطئة.

\* وكما ذكرنا، فإن أخطر أخطاء الحساب تتعلق بالآخر، تعريفه - مدى احترام إرادته - وتقويم قدرته، وهنا قد يكون الخلل قطعياً أو قومياً أو نولياً، فمحاولة حزب من الأحزاب، أو جماعة من الجماعات العرقية أو الدينية، الهيمنة الكاملة على مقدرات قطر من الأقطار، مع

الاستهانة الكاملة بحق الآخرين وقدرتهم على الدفاع عن هذا الحق، خطأ شائع في العديد من الأقطار، دفع ثمنه وسوف يستمر في دفع ثمنه من يرتكبونه، وعلى قمتهم الأحزاب الشيوعية الأصولية في دول أوروبا الشرقية، والجماعات المتعصبة عرقياً أو دينياً أو سياسياً في الشرق والغرب، ويتساوى في الخطأ - وهذا هو المثير - كون هذه الجماعات أغلبية أو أقلية، لأن عدم الاستقرار يطول الجميع بسبب الخطأ البشع في تقدير أهمية التواجد المشترك والاعتماد المتبادل، اللذين نرجوهما للبشرية كلها، وبالتالي يجب توفرهما من باب أولى داخل كل قطر من الأقطار.

\* وللأسف تأتي أشهر أمثلة الأخطاء القومية، بون تهويل أو مبالغات إنشائية، من المنطقة العربية إن النموذج «الكويتي - العراقي»، الذي أهدرت فيه كل الحسابات المنطقية لتعريف «الشقيق» وإحترام إرادته وقدرته على المستويين العربي والدولي، قد قدم مثلاً مأساوياً لما يمكن أن تؤدي إليه أخطاء الحساب من آثار سلبية على المدى القريب أو البعيد ولا بد من جهد مخلص جبار لتقليل هذه الآثار، والخروج من هذا المأزق بالكليات عربية تتواكب - بل وأتمنى أن تسبق - الآليات الدولية، أننا نمر بمرحلة «الآفاق»، والأمل كبير أن تسترد الأمة عافيتها القومية، على أساس صحيح من العلاقات العقلانية الراسخة، التي تدرك البعد المستقبلي الهام لوضع كل الضمانات «العربية قبل الدولية» لعدم تكرار

الأخطاء القومية البشعة، لأن العروبة فى عالم المستقبل لن تكون «قدرا» فقط، لكنها - لى تبقى قوية وسليمة - يجب أن تظل «اختيارا». وهذه قصة أخرى، وقد نعود إليها بتفصيل أكبر فى مقال قادم بإذن الله\*

إذا انتقلنا إلى أخطاء الحساب النولية نجدها كثيرة ومتشعبة، وأن كان أشهرها فى عالم اليوم «الأخطاء البنيوية» فيما كان يسمى بالكتلة الشرقية، لكن هذا ليس هو المثال الوحيد، بل وليس هو المثال الأبعث فالمرشح الآن للحصول على «كأس البشاعة» هو خطأ الشمال فى علاقته بالجنوب، وفى تعنته بالنسبة لإستفادة الجنوب، الذى تعاني شعوبه من آثار المرحلة الاستعمارية، من منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية، وفى فرضه نموذج الثقافى، بالإضافة إلى السياسى والاقتصادى، على الآخرين، أن النظرة الضيقة تتصور إمكانية إستمرار ذلك، بسبب قوة الشمال المفرطة، لكنها نظرة قاصرة، ذات كلفة بشرية باهظة. أن صورة المستقبل البشرى تحتاج للكثير من خبرات الأغلبية الجنوبية، رغم تخلفها المادى، بالإضافة إلى ما تستطيع أن تقدمه الأقلية الشمالية المزهوة بإنجازاتها. ورغم أحقيتها فى هذا الزهو، يجب أن تسأل نفسها: إلى أى حد أعتد تقدمها على العطاء التاريخى للجنوب؟ وما مغزى ذلك فى تشكيل صورة المستقبل، وفى ضرورة المشاركة الجنوبية فيه؟ إن فى الغرب من المنصفين من لا يعزو كل تقدم إلى «أثينا البيضاء»، لكنه

---

\* أنظر مقال «التسعينات إختيار»

يتحدث عن فجر التقدم فيما يسمى «بائينا السوداء»، وهذا هو اسم كتاب شهير يتحدث عن دور الجنوب، بصورة لا يصل إليها بعض «المستغربين» من أبنائه، وبشكل يذكرني بما يرويه أحد الظرفاء عن إنهار مثقفينا بالفلسفة اليونانية وتغلل البقال اليوناني (الجرىكى) كما يسمى فى الشارع والريف المصرى منذ عدة عقود، حيث كان يقدم الخمر والقروض الربوية بجانب البقالة، إذ يقول ضاحكاً «كانت الصفوة من أتباع أرسطو، والبقية من محاسيب خريستو» باعتبار خريستو من الأسماء المشهورة «للخواجة» اليونانى فى مصر!!! ونحن لا ننكر عظمة الفلسفة اليونانية بالطبع، ولكن من أخطاء الحساب المرفوضة، أن ننكر ما يمكن أن تقدمه ثقافة الجنوب، وبالذات الثقافة العربية الإسلامية، فى تشكيل صورة المستقبل البشرى، ولأن هذه الثقافة العزيزة تقول لنا: «أبدأ بنفسك أولاً، فلنتبع نصيحتها قطرياً وقومياً ولنستلهم حكمتها فى تعاملنا مع «الأخر» بكل درجاته.

## ٤ - عروبة المستقبل

**الس** متى تستغرقنا أشكاليات الثبات والتغير؟ وإلى متى نربط الثبات بالصواب، بصرف النظر عن كنهه، ونربط التغير بالخطأ؟ بصرف النظر عن ضرورته؟ وهل يحسب هذا الموقف المتجمد على ثقافتنا العربية الإسلامية رغم أن فجر الإسلام وضاحه شهدا أكبر قدرة على «جهاد الاجتهاد»، كما أفضل أن اسميه لقد كان التدهور صنوا للجمود، فلماذا نتمسك به؟ ولكن، هل تكون المطالبة بالتغير والتطور صنوا للجمود؟ بالطبع لا، فنحن لا نريد الجمود أو الجحود، وإنما نريد أن نضع أيدينا على الصيغة الصحيحة للثبات والتغير، بما يمكننا من «التكيف المشرف» مع عالم اليوم الهادر بأسرع معدلات التغير التي شهدتها البشرية، ونكرر دائما أننا نريد القيام بذلك دون نوبان أو عزلة، ولأن قائمة أشكاليات الثبات والتغير طويلة، أفضل اليوم أن نتناول باختصار أشكالية مطروحة بشدة في هذه الأونة، وأعنى بها «صورة العروبة» المتوقعة في المستقبل، وهي الصورة التي أتمنى إلا تكون مهزوزة!!!

• وقبل أن يمارس العقل العربي الأبداع المطلوب للتوصل إلى صورة دقيقة غير مهزوزة عن «عروية المستقبل»، يجب أن يحلل أسباب اهتزاز الصورة الحالية، رغم محاولة الاتجاهات والحركات القومية أن تضعها في أبهى إطار، أظن أن هذا الاهتزاز يمكن أن يرجع إلى «آليات التجنيس القهرية»، التي دفعت العرويين دفعاً إلى تبني هذه الصورة، ويمكن في هذا المقام أن نذكر آليتين هائلتين، الأولى تتعلق بالحكم العثماني، والثانية تتعلق بالمرحلة الاستعمارية التي أعقبته، لقد قدم الحكم العثماني نفسه بإعتباره الإمتداد الطبيعي لمبدأ الخلافة الإسلامية، وكان هنالك من يرى في رفض أخطائه خروجاً عن الإسلام، وكان رد فعل العرويين هو تقديم صورة أكثر تجانساً من الواقع عن الكتلة العربية، باعتبارها كتلة ذات خصوصية ثقافية بل (عرقية أحياناً) تعطيها حق التميز، واستخدمت أدوات كثيرة في الجدل، من بينها دفع تهمة عدم الإلتزام الديني بأنهم الناطقون بلغة القرآن والمحافظون عليها، ومن بينها أيضاً أن الإلتزام العربي في هذه الكتلة يتسع بشكل أنسب للأقليات غير المسلمة، التي ظهر من بينها عرويون متشددون، ومع حسن نية الكثرة الغالبة من دعاة العروية، إلا أن الصورة التي قدموها لم تتسع لتوضيح حقيقة أن الثقافة العربية تتضمن «تحت ثقافات» عديدة لمجتمعات متباينة الظروف، رغم قناعتنا الكاملة لإمتلاكها المقومات التاريخية والجغرافية والمستقبلية لفهوم الأمة، لقد أدى «التجنيس القهري» الناتج من جعل الحكم العثماني، إلى التفاضل - عمداً وعن

غير عمد - عن كثير من الملامح والتفاصيل فى الصورة المشتركة للمجتمعات المكونة للكتلة العربية، مما جعل هذه الصورة العزيزة مهزوزة ... مهزوزة!!!

• هذا عن الحكم العثمانى فماذا عن آلية التجنيس القهرى الثانية، أو الاستعمارى؟ لقد عانت المنطقة العربية من كل أشكاله العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وما زالت. وخضعت بعض بلدانها وشعوبها لمحاولات التغريب الكامل، حتى أن استعادة التعريب احتاجت جهداً مشكوراً. ونظراً لتأثير أشكال الاستعمار المذكورة، مجتمعة أو منفصلة، عمد الاتجاه العربى مرة أخرى إلى التجنيس القهرى، وأفرزت حركات التحرر الوطنى تصورات عن التنمية المستقلة، تشبه نظرية الأوانى المستطرقة، ساعدها المد القومى فى أهمال الخصوصيات، وما أن تجاوز «المشروع القومى» هذه اليوتوبيا، وفكر فى صيغ أكثر نضجاً للتكامل ووحدة الصف والهدف، بعد حقبة من الاستقطاب شرقاً أو غرباً، ومن محاولات التقسيم الأيديولوجية، حتى داهمتنا متغيرات ما بعد الحرب الباردة بين الكتلتين الغربية والشرقية، الأخذتين رغم كل التناقضات فى التوحيد التدريجى على شكل قطب شمالي متقدم تقوده الولايات المتحدة، وتنظم إليه من الشرق الجغرافى اليابان وغيرها من الدول متسارعة النمو الاقتصادى، ما مصير «صورة المستقبل العربى» فى هذه المرحلة؟ هذا ما سنحاول تشوفه فى السطور التالية.

• لقد أدى انتهاء التجرد والاستقطاب مع غياب الحرب الباردة إلى سيولة حادة في المنطقة العربية، حاول البعض انتهازها في إعادة التشكيل طبقاً لمصالحه الضيقة، مستخدماً - وبالعجب - الورقتين القومية والإسلامية معاً. لكن معطيات النظام الكوكبي الجديد بكل ماله وما عليه من ناحية، والحس السليم لقطاعات غالبية من الجماهير العربية وحكوماتها من ناحية أخرى، نجحا في التصدي لهذه الصسابات الخاطئة وأحبطاها. لكن - والحق يقال - مازالت السيولة على أشدها، ولا بد من تشجيع عوامل «اللزوجة» في المنطقة، ليتمكن تشكيل النظام العربي الجديد، طبقاً لما ننادى به من تكيف مشرف مع النظام الكوكبي الصاعد. ومن أهم عوامل اللزوجة تلافى التجنيس القهري، باحترام ما ينادى به القوميون المتنورون من الوصول إلى صيغة الوحدة في إطار التنوع، ومن فك الاشتباك المفتعل والمغرض بين العروبة والإسلام، ومن تسامح ثقافي يحل مشاكل الإلتواء العربي مع الأقليات العرقية والدينية داخل المنطقة، ومع الكيانات المحيطة. بالإضافة إلى ذلك، لا بد من الانتباه إلى ضرورة الاتفاق الفعال على موقف موحد بالنسبة لهذه المرحلة الحاسمة التي تدخلها القضية الفلسطينية، والاستعداد لحل مشكلاتها الحاضرة والمستقبلية، بشكل لا تتناقض فيه الواقعية مع الإلتزام. وأخيراً، يجب الاستفادة من دروس الغير، وبالذات من درس البيت الأوروبي، لإعطاء الإهتمام الكافي «للأمن التتموي» لكل شعوب

المنطقة، وهو الأمن الذي طالما أهدرت إمكاناته في معارك عبثية بين أصحاب نظريتي «الأواني المستطرقة» المغرقة في يوتوبيا التجنيس الكامل، و«القماقم المغلقة» المغرقة في العزلة القطرية غير الواقعية، في عالم التكتلات الكبيرة والاعتماد المتبادل. بهذا يمكن أن يصل العرب إلى صورة دقيقة غير مهزوزة للمستقبل، يمكن أن يتعرف فيها كل منهم على ملامحه بوضوح، نون أن ينسى - ولو للحظة - أهمية وحتمية وجوده بين أشقائه، وأن لم يمارس «جهاد الاجتهاد» اللازم للوصول إلى هذه الصورة، فلا يجب أن نلوم إلا أنفسنا.

## ٥ - موسم الهجرة إلى الجنوب !!!

**ما** أن نفكر في المستقبل، وفي ضرورة مواجهته بما يلزمه من إبداع وإبتكاريه، حتى نتمكن من التغلب على تخلفنا المادي، وحتى نشارك بفعالية أكبر في صياغة مستقبل البشرية، كجزء فاعل منها، أقول ما أن نفكر في ذلك حتى نتجه فوراً إلى الشمال أو إلى الماضي. والسؤال الذي يطرح نفسه بشدة، حيال هذا الموقف، يتكون من شقين: هل هذا هو التصرف السليم؟ وهل يكون البديل «دعوة مراهقة» للإنفصال عن الشمال أو عن الماضي؟ والإجابة القاطعة على الشقين هي النفي بالطبع. لكن هذه الإجابة تقودنا إلى سؤال آخر عن كيفية إتخاذ الموقف السليم من الإبداع المستقبلي، دون الإكتفاء بإبداع «الأخر» المكاني «الشمالى» والزمانى «الماضوى»، وعن المجالات المطلوبة الإهتمام بإثرائها بفكرنا الإبداعى، ومفاتيح ممارسته حضارياً فى عالم اليوم بكل ظروفه الحاكمة، الملائم منها وغير الملائم. دعونا نحاول الإجابة على هذا «السؤال المركب» فى السطور التالية:

• إذا كنا نتحدث عن صورة المستقبل، باعتبارها ستتوقف على الخيارات الإبداعية لإنسان اليوم، وإذا كان هناك إتفاق عام على أن المستقبل للمبدعين، فهل سيكون لغير المبدعين موقع في هذه الصورة؟ قطعاً لا!!! إن المستقبل يحمل بكل تأكيد إمكانيات التهميش، والأنزواء في ظلال التاريخ، لغير المبدعين، الذين لا يبذلون الجهد الكافي في سبيل «التكيف المشرف» مع المبدعين الآخرين، المشاركين في صياغة صورته. وأخطر ما يواجهها، أن نتصور إمكانية المشاركة بالنقل. هذا ليس «إبداعاً» لكنه «إتباع» يصح بل ويجب وجوباً مطلقاً في شئون الدين من عبادات، ومعاملات، مادام الأمر يتعلق بنص إلهي مقدس أو حديث شريف صحيح، أو غير ذلك من وسائل التوصل إلى القواعد الشرعية. ولكن ديننا الحنيف وسلطاننا الصالح يهييان بنا مع البعد عن «الإبتداع» في شئون العقيدة، أن نبذع في كل الشئون الأخرى. لقد أبدعت الثقافة الإسلامية «ديناميكيته الفطرية»، بشكل جعلنا نسمح «الأذان في مالطة»، وفي كل بقاع الأرض، فلماذا نحاول اليوم أن «نبذع» في تكريس النقل، وإهدار العقل؟ ولماذا تنقسم حيال هذا النقل إلى قسمين: قسم ينقل عن الماضي الذي تغير منذ زمن بعيد، وقسم ينقل عن الشمال الذي يتغير حاضره باستمرار، ويصير ماضياً؟ هل كتب علينا أن نتعامل باستمرار مع كل أشكال الماضي، الذي تختلف ظروفه الزمانية والمكانية عنا؟ وأي مشاركة مستقبلية يمكن أن نرجوها من وراء إتباع هذا المنهج؟

إن الحل الأمثل هو الإلتزام بالإبداع الكلى، الذى لا ينفصل عن جنوره الماضية، ففى هذا موته الحضارى المؤكد، حتى وإن ظن أنه يستطيع «الفناء المستحيل» فى الآخر مهما كان متقدماً، وكذلك لا يلح على نقل تفاصيل الواقع المختلف عند هذا الآخر بماديته المفرطة ومشاكله الخاصة، لأنها لا تصلح صورة لمستقبلنا رغم أنها ستصير بسرعة ماضياً لصاحبها. عليه أن يشارك فى «مباراة التجاوز»، التى يستعين فيها بكل ما يفيد من ماضيه الخاص - وما أكثره - ومن حاضر الآخر وإجتهاداته المستقبلية وما أكثرها أيضاً، ويبنى على ذلك كله «إجتهادات» إبداعه الخاص عن صورته الخاصة، فى إطار صورة المستقبل المرجوة للبشرية جمعاء. هكذا يمكن أن يضع بصمته، وأن تحتوى هذه الصورة على ملامحه بجوار ملامح الآخرين، وهكذا يؤكد وجوده الحضارى دون نوبان أو عزلة. وهذا جماع ما أسميه «بالتكيف المشرف».

• وإذا كان الفكر الأبداعى يستهدف تجاوز الواقع، وصولاً إلى الصورة المرجوة للمستقبل، فلا بد أن هنالك مجالات لممارسة هذا الفكر يودى النجاح فى «ثورتها الإبداعية» إلى الهدف المنشود. هذه المجالات، التى تؤدى ممارسة «الإبداع المتناسق فيها إلى «حرك مجتمعى» شامل نحو المستقبل، يمكن أن توجز فى ثنائيات أربعة: التربية والتعليم - الثقافة والإعلام - العلم والتكنولوجيا - السياسية والإقتصاد. هل نسيت شيئاً؟ لا أظن، وإن كان هذا التساؤل عن احتمالات النسيان قد دفعنى

إليه أحد الأصدقاء عندما كنت أحدثه عن هذه الثنائيات الأربعة، حيث ذكرني قائلاً: أين الدين والفن مثلاً؟ فأجبت بأن الدين عماد التربية، والفن جزء عضوي في منظومة الثقافة. المهم أن نذكر أن مساحة التحرك الإبداعي في هذه المجالات كبيرة جداً، ولنجعل تقليل التصادم بيننا وبين غيرنا أحد أهداف هذا التحرك!!! لقد إحتفيت كثيراً بدراسة صدرت أخيراً عن مركز الدراسات التربوية بمصر، عن الإبداع والتعليم العام، ورغم أنها تركز بشكل شبه كامل على «الهجرة إلى الشمال» في معالجة الفكر الإبداعي في التعليم، إلا أنها حوت بدايات جيدة للإجتهدات الخاصة بنا، وكذلك بعض الدراسات الميدانية الوليدة، بجانب الفائدة التي لا تنكر من تعريفنا بالمفهوم الغربي للإبداع البشري عموماً، وفي مجال التربية والتعليم بالذات. وإن كنت أرجو أن يزداد الإهتمام بحضور وبنور الإبداع في حضارتنا العربية الإسلامية، كنقطة الإنطلاق الصحيحة لممارستنا لهذا الإبداع. ولأهمية هذا العمل قد يستحق أن نولى تطويره عناية خاصة، وإن كانت أرجو في ختام المقال الحالي أن أشير بكلمات قليلة إلى مفاتيح ممارسة الإبداع في ظل الظروف الحاكمة في عالمنا، وفي ظل هدف «التكيف المشرف»، الذي كررته أكثر من مرة.

• بإيجاد شديد يجب أن تحكم إجتهداتنا قناعة كافية بأننا نعيش في مرحلة الكوكبية Globalism، التي تتسم بضرورة قناعة المشاركين في مباراة تجاوز الحاضر ورسم صورة المستقبل بعدة مبادئ، أهمها

الإعتماد المتبادل والمسؤولية المشتركة، بالإضافة إلى التخلي المطلق عن «الغلو» الإيديولوجي والتسامح الثقافي، في ظل الإيمان بوحدة الحضارة البشرية مع الاختلاف الحتمي لثقافات أبنائها. هذا الاختلاف، إذا حرصنا على ألا يتحول إلى خلاف ونزاع، يمكن أن يثري الوحدة الحضارية ويمدها بفيض من إمكانيات التصدي لمشاكل التطور الحضاري المتزايدة والمتجددة. ورغم كراهيتي «للنهايات الخطابية» للمقالات، إلا أنني أدعو الله مخلصاً أن نستطيع النجاح في «التحدى الإبداعي» المطلوب بسرعة وإلحاح .

## ٦- التسعينات .. اختيار

في أول إعدادها في بدء عام ١٩٩٢، قدمت مجلة «تايم» تيد تيرنر، صاحب «سى . إن . إن» و بإعتباره رجل العام ورغم الكثير والمثير مما ذكرته المجلة عن قصة نجاحه الباهر وبنائه الباطني المحير، وعن إعجاز محطاته الشهيرة في عرض «التاريخ» في لحظة حدوثه «أو استحدثه في بعض الأحيان»، فقد شد انتباهي عبارة وضعها في أكثر من مكان على مكتبه!!! هذه العبارة نقول: «إما أن تقود، أو تقاد، أو تتحى عن الطريق». فهل هذه هي الخيارات الوحيدة المطروحة في هذه المرحلة؟.. وبمعنى آخر، هل «الحلم الأمريكي» الفردي الذي حققه تيرنر، هو نفسه الحلم الأمريكي الكوكبي، الذي يعتقد البعض أن أمريكا قد حققته، تاركة للآخرين التبعية أو الهامشية؟.. وإذا كنا نرفض الاقتناع بإستمروارية اللحظة احادية القطبية، ولا نرى أن الخيارين الوحيدين أمام الآخرين هما التبعية والتهميش، فما هو البديل المطروح؟ أن حدوث ما وصف «بالهزيمة بلا حرب» للكثلة الشرقية وقائدها المنتحر، يجعل الحلم الأمريكي الخاص «بمكسكة العالم» يراود البعض

«وأعتر عن غرابة الكلمة، فهي مشتقة من المكسيك، هذا الجار المسكين الذى يزداد ضعفاً وهامشية، نون أن يكون ذلك أمراً محتوماً». وإذا كان التهميش ليس سهلاً، فلا بأس من «البديل الكندى»، حيث بدأ أبناء هذا البلد الجميل يشعرون بمخاطر سيناريو التبعية المتزايدة، الذى يتضمنه مشروع الأمريكتين. ولكن، هل يمكن التفكير فى تعميم البديل الكندى على الكتلتين الكبيرتين المنافستين لأمريكا وأغنى بهما الكتلة الأوروبية، والكتلة اليابانية - الآسيوية وهل يمكن استمرار - ولا أقول تعميم - البديل المكسيكى، المتحقق فعلاً بالنسبة للعالم الثالث؟.. مرة أخرى، نواجه نفس التساؤلات بتحديد أكبر، والأجابة عند رجل العام!!! فالنجاح الظاهرى الباهر يجب إلا ينسينا البنيان الباطنى المحير. أن أمريكا - هذه البوتقة التى تضم أبناء كل ثقافات الأرض - يشعر الكثير من عقلائها، بأنها تواجه فى مطلع التسعينات ما تواجهه البشرية كلها: أزمة النموذج. أن الحلم الأمريكى قد صار أيلاً للسقوط، بعد سقوط التحديات التى عمقته، والمطلوب من كل البشر، مع اختلاف المواقع والظروف، تجديد أحلامهم، بما يتناسب مع المتغيرات الجديدة. وما أكثر الفرص والمحاذير فى هذه المرحلة!!!

أن استقرار الأحداث يؤكد أن عقد التسعينات شعاره «الاختيار» بل أن الكثير من الشعوب تعيش «مخاض الاختيار»، ويخشى على ضعف البنية من تعرضهم لإجهاض الاختيار»!!! ولعل مساحة الاختيار الكبيرة

تفسر السيولة الملحوظة، لأن الاختيار يعنى اهتزاز الثوابت، التي قد يتم استبقاء بعضها، والاستغناء عن البعض الآخر. وقد يمكننا ذلك أيضاً أن نفهم «لوفاريمات» التكتل والتفتيت، الذي يجرى أمام أعيننا في نفس الوقت، ويجعلنا نتعجب من «الاختيار المرحلي» الخاطيء، الذي يمارسه الضعفاء فيزدادون ضعفاً بتفتت كياناتهم، ونعجب بالاختيار المستقبلي الصائب، الذي تمارسه كيانات أقوى بتكتلها فتزداد قوة. لكننا نأمل أن تتحسن آليات الاختيار بسرعة، وأن يفهم الجميع أن المرحلة الكوكبية تستلزم خيارات وأحلاماً كوكبية، تمتلك بعض العناصر المشتركة، التي تتمشى مع «المستقبل المشترك» دون أن ينفي ذلك تضمنها كل ما يلزمها من خصوصيات يفرضها الواقع المختلف. أن خيارات وأحلاماً كهذه، ستمكن البشرية في الألفية القادمة من أن «تستحدث» تاريخها بصورة يقبلها الجميع، بحيث لو شاهدناها عن طريق «سى . إن . إن» لا نفكر لحظة واحدة في «نظرية المؤامرة» أو «نظرية الغفلة»، أو هما معا!!!.

والسيولة الحالية قد جعلت العروبة نفسها موضع اختيار، وأن لم نتمسك بها فستذوب بصورة أو بأخرى في الصيغة الشرق أوسطية، وسيكون دور الغفلة في ذلك أكبر بكثير من دور المؤامرة. ولكن على من يريدون الحفاظ على العروبة، بل وعلى الثقافة العربية الإسلامية نفسها، أن يعملوا من جديد على صياغة حلم عربي - كوكبي، يستجيب بعقلانية وانفتاح للمتغيرات الفاعلة في عالم اليوم والغد. قد تكون هذه مهمة

صعبة، يعيقها الكثير من التشوهات والشروخ التي حدثت واستحدثت  
فى الفترة الأخيرة، لكننا فى وقت يجب أن نفرق فيه بين الصعب  
والمستحيل، وإلا فعلينا أن نتنحى عن الطريق!!!